«أولاد أحمد.. مسودة وطن».. قصائد الثورة والإنسان والأحلام

المترجم التونسي أيمن حسن يقدم أول مختارات فرنسية لأولاد أحمد

من عرف الشاعر التونسي محمد الصغير أولاد أحمد عن قرب شخصا وشاعرا، أو من قرأ قصائدَه التي تحول بعضها إلى أيقونات ثورية رفعتها الحناجر واليافطات والجدران منذ أيام الثورة كتمائم في وجه الاستبداد، يدرك قدرة هذا الشاعر الكبيرة على الجمع بين الالتزام والعمق والحساسية في الشعر، وكل ذلك خارج دائرة الأيديولوجيا التي حبست الكثير من الشعراء العرب، وهو ما تؤكده مختارات جديدة صدرت بالفرنسية للشاعر بعد ما يقارب الخمس سنوات على رحيله.

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

"أولاد أحمد.. مسودة وطن" عنوان مختارات شعرية للشاعر التونسي الراحل محمد الصغير أولاد أحمد، قدمها أخيرا باللغة الفرنسية الشاعر والمترجم التونسي أيمن حسن.

ويقدم الكتاب الجديد، الصادر عن دار مانيتاست الفرنسية، أول أنطولوجيا بالفرنسية لأولاد أحمد قسمها حسن إلى ثلاثة فصول جاءت تباعا "حول الشعر"، "قصائد الثورة التونسية"، "مسودة وطن وقصائد أخرى"، من خلالها نتعرف على جزء هام من مسيرة أولاد أحمد العاشق لبلاده والصوت الصادح بآلام وآمال التونسيين وكل المهمشين.

الشعر والسياسة

يبدأ الكتاب بقصيدة أولاد أحمد الشهيرة "نحب البلاد" التي ذاع صيتها حتى خارج تونس لما فيها من حس وطني، وهو الذي يقول في مطلعها "نحب البلاد/ كما لا يحب/ البلاد أحدْ/ نحج إليها/ مع المفردين/ عند الصباح/ وبعد المساء/ ويوم الأحد/ ولو قتلونا/ كما قتلونا/ ولو شردونا/ كما شرّدونا/ (..) لعدنا غزاة/ لهذا البلدْ".

الكتاب يقدم أول أنطولوجيا بالفرنسية للشاعر التونسي من قصائد سياسية وقد قام باختيارها بنفسه قبل رحيله

ليس من باب المصادفة أن يصدر أولاد أحمد بعد الثورة التونسية كتابه "القيادة الشعرية للثورة التونسية"، وهو الذي كرس شعره لقضايا وطنه لكن من خارج دائرة الأيديولوجيا الضيقة، بل من باب الإنساني والحلم بالحرية والتحرر والتوق إلى مستقبل أفضل للناس والأرض، للمهمشين، الذين أتى الشاعر منهم، وهو ابن مدينة سيدي بوزيد مهد الثورة التونسية.

وفي تقديمه للكتاب يقول الشاعر السوري أدونيس "لم يلتزم أولاد أحمد شعريا بالسياسة وإنما التزم بالشعر سياسيا على النقيض من معظم الشعراء العرب الذين جايلهم. وليتهم أخذوا بالتزامه إذا لكان شعرهم فتح فضاء خلاقا من العلاقة بين الرؤية السياسية

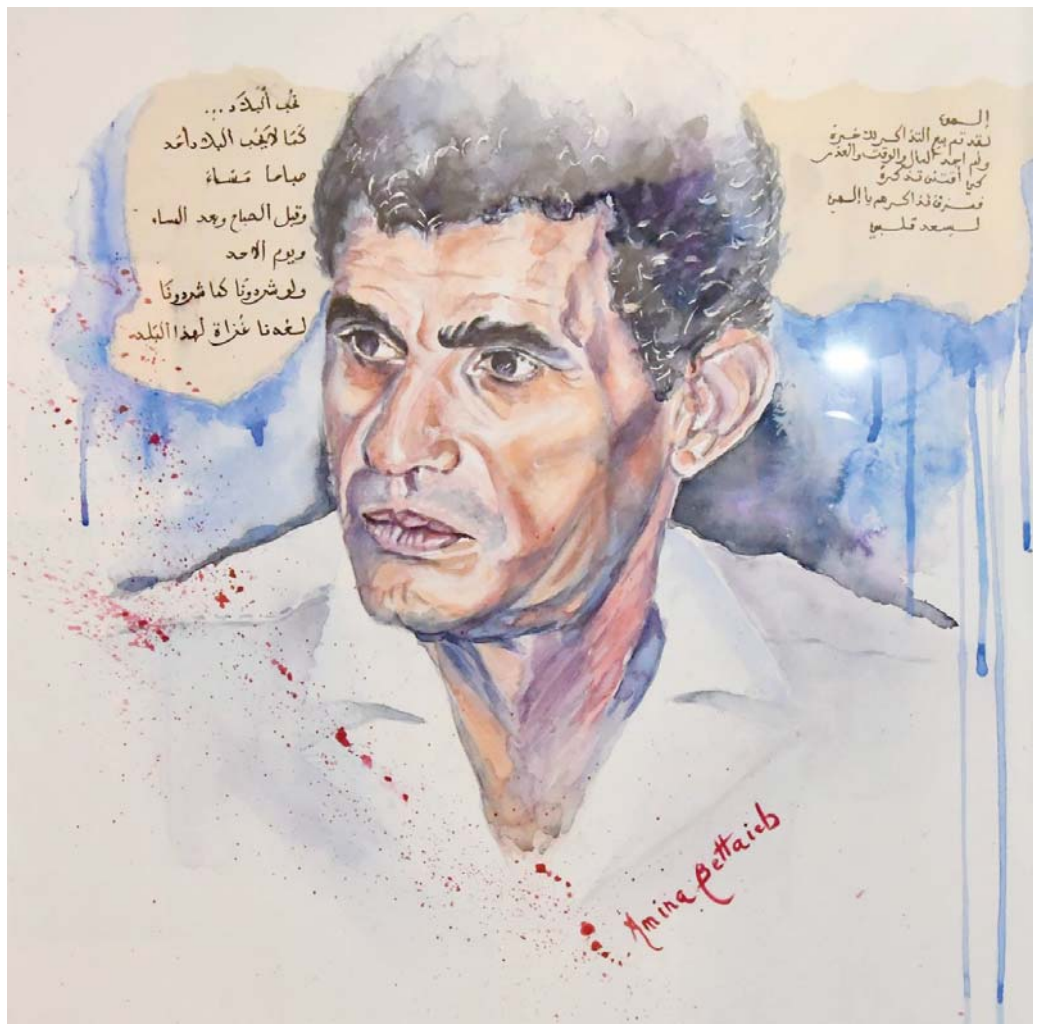

شاعر الحرية وأيقونة وطن

والرؤية الشعرية، هكذا جاء شعره مختلفا بذاتية حماسية وتعاطفا وبنظرته فهما واستبصارا".

ويضيف "ظلت السياسة والأيديولوجيا في هذا الشعر كمثل غيمة لا يستشف وراءها من ينظر إليها إلا ما يشبه الوعد أو التلويح برذاذ خفيف عابر".

مقرا بأنه "هكذا عاش أولاد أحمد في الزحام السياسي الأيديولوجي كمثل طائر في غابة: لا يتردد على الظلال الكثيفة، وإنما يقيم في سره المنفرج المضيء منفردا بين أحضان غصن منفرد".

في الفصل الأول من الكتاب نقرأ آراء أولاد أحمد "حول الشعر"، منطلقا في قصيدته "إيقاع" من تساؤلات حول منطلقات الكتابة من الأولين إلى اللاحقين، ولم يخف حتى من ذكر الأنبياء الذين كتبوا بريش العصافير المذبوحة، لم يتوان حتى عن فضح الكاذبين في قصيدة تالية وتمجيد المكان في أخرى، هكذا كان الشاعر متمردا على التاريخ الثابت كما يروى لنا، متسائلا عن جوهر أهم الأفعال الإنسانية ألا وهو الكتابة التي عاشرها عقودا ولكنه لم يعرف فيها الثبات على شكل أو تقنية أو موضوع، عدا أنه المسحور بوطن يحلم به.

في الفصلين التاليين نقرأ للشاعر قصائد سياسية بامتياز، قصائد تمثل وجهة نظره في طريقة إدارة البلاد التونسية خاصة في زمني الرئيس الراحل زين العابدين بن علي وما بعده زمن الثورة التي جاءت بالإخوان إلى السلطة في تونس، ليبشروا بسنوات من الخراب والعنف كان الشاعر أولى ضحاياها، وهو الذي اعتدي عليه في حياته أكثر من مرة.

يقول الشاعر في إحدى قصائده التي ضمتها الأنطولوجيا: "إلهي أعني عليهم/ لقد عقروا ناقتي/ وأباحوا دمي.../ في بيوت أذنت بأن لا يراق دم فوق سجادها/ إلهي/ أعوذ بك الآن من شر أهلي/ يبيعون خمرا رديئا/ ويؤذون ليل السكارى البريء".

الالتحام بالناس

حتى في لحظات التضرع لا يتوقف أولاد أحمد عن الانتصار للمهمشين والمنسيين والمطليين بقطران الاحتقار من السكارى وسكان الليل والعاهرات وأناس الشوارع الخلفية والعاطلين وحبيسي الفشل والضياع وغيرهم ممن لا يلتفت إليهم عادة في الأعمال الأدبية إلا كونهم ضحايا وعالمًا ديستوبيًا قبيحًا لا يستحق إلا النقد، يأخذ الشاعر بأيديهم إلى قصائده ليجعل منهم البريئين موجها اتهامه للسلطة قبل أي شيء غيرها.

فتح الشاعر قصيدته للبلاد ولثورتها فنجده ملتحما مع طالبي الحرية قبل الثورة وبعدها، حتى أنه كتب "تحية إلى شباب القصبة" الاعتصام الذي تلا رحيل بن علي وأسقط حكومته. كان الشاعر صوت كل رجل وامرأة، كان صوتا شجاعا يقف في وجه التيار ليدافع عن المظلومين والمتروكين في الظلال، يتحدث للعالم باسمهم، يقول وجعهم وأحلامهم، عواطفهم وهواجسهم المكتومة.

لم يتوقف أولاد أحمد عن دوره كشاعر مشاكس، بليغ، لا يصمت عن الحق ولا يتراجع عن قضاياه ومبادئه في أن يكون شاعر الناس، في قصيدته المكتوبة نثرا أو في التفعيلة، كانت رحلة لغة إلى دواخل الأماكن محملة بحكايات ليلية، كانت تسخر وتحب وتغضب وتشاكس وتصرخ، كانت قصائد مليئة بالحياة حياة التونسيين ومكرسة لثورتهم بقوة وجرأة.

من خلال القصائد المختارة نعيد اكتشاف أولاد أحمد الصوت الشعري الذي يصدح عن حناجر كل التونسيين وكل المهمشين في هذا العالم، الصوت الساخر والناقد والصارخ في وجه منظومة الإخوان ما بعد الثورة، وقد أمسى أيقونة لهذه الثورة التي التف حولها الجميع، محتمين بقصائده، وكلنا نتذكر دوره في كبح جماح الإخوان في اعتصام باردو ومحاولة تصحيح المسار، إذ لم يكتف بالكتابة عن بعد بل كان حاضرا في الحراك الشعبي.

وتسأل "العرب" المترجم أيمن حسن عن سبب تركيزه على القصائد السياسية للشاعر فيقول "الوضع الراهن للبلاد فرض هذا الاختيار مع العلم وأنّي اخترت القصائد صحبة الشاعر قبل وفاته. أردنا في الحقيقة النجاح في معادلة الشعر والسياسة لمحاربة أعداء الوطن".

عاش الشاعر رفقة التونسيين في مواصلات النقل، في الأنهج الخلفية، في المقاهي وفي الأسواق، لم يكن له برج العاج الذي كان لغيره من المترفعين عن أبناء جلدتهم، لذا أصلح أولاد أحمد صورة الشاعر في أذهان الناس، وصار مثالا للشاعر الصادق، المرهف والقوي في الآن نفسه، الساخر والجدي، الناقد والمحب.

ويكاد يكون أولاد أحمد الشاعر التونسي الوحيد الذي تمكن من أن يصبح ظاهرة شعبية بعد أبوالقاسم الشابي الذي نال شهرته بعد وفاته، فلا تجد رجلا طفلا أو امرأة حتى من غير المتعلمين، إلا ويعرف الشاعر، وقد يحفظ بعض السطور من شعره.

لكن وإن كنا في هذه المختارات نكتشف وجه اللحمة بين السياسي والشعري في نصوصه فإن للشاعر قصائد أخرى تذهب أكثر إلى التفاصيل اليومية، معرية معاناة الشاعر الوجودية وألم الإنسان الذي تعتصره المدن المعاصرة وتمزق أحلامه وتحاصر جسده وصوته، في محاولة لتحويله إلى عنصر من ماكنة إنتاجها التي تدور دون توقف أو رحمة.

أدونيس

لم يلتزم أولاد أحمد شعريا بالسياسة وإنما التزم بالشعر سياسيا

أيمن حسن

الأدب التونسي غير منتشر أوروبيا لكني أؤمن بالمبادرات الشخصية

عوالم الشاعر متداخلة ما يفرض صعوبة في تفكيكها وترجمتها، ونظرا إلى صعوبة ترجمة الشعر تسأل "العرب" أيمن حسن كيف كان نقل عوالم الشاعر إلى الفرنسية؟ فيجيبنا "دائما أقول إنّ ترجمة الشعر تتطلّب شاعرا. طبعا، أشتغل منذ سنين على الترجمة وكما ورد في تعريفي من قبل الناشر الفرنسي، ترجمت لأدونيس والمزغني ونوري الجراح ومحمد الغزي وطلال حيدر وغيرهم. كل منهم له لغته وعوالمه، وأحاول أن أحترم ذلك في لغة الوصول".

وحول مدى تقبل شعرية مثل شعرية أولاد أحمد من قراء الفرنسية يقول حسن، لـ"العرب"، "أولاد أحمد شاعر حقيقي وارتبط اسمه بالثورة التونسية. صحيح أن الأدب التونسي غير منتشر بكثرة في فرنسا وفي أوروبا عموما، والأسباب كثيرة ومتنوعة، لكني أؤمن بالمبادرات الشخصية والعمل لتجاوز هذا النقص. سيكون الأمر أفضل مع صدور كتاب آخر للشاعر".

ويأمل حسن في مواصلة ترجمة عوالم أخرى من عوالم الشاعر أولاد أحمد الذي حصرته الذائقة في شق الشاعر السياسي والوطني، وإن كان ذلك التمشي ينال جل ما كتب، وقد أخذ عليه ذلك من باب التكرار والإغراق في الخطابة في حياته، إلا أن التجربة الشعرية لأولاد أحمد أو أي شاعر غيره تقرأ كاملة بكل كبواتها ونجاحاتها.

«وجوه مكممة ولوحة حاسرة» كتاب يرصد تجليات الجائحة في الفن التشكيلي

عمان – ظاهرة الأوبئة وتجلياتها مع الإبداع قديمة قدم الإنسان، فقد تطورت أدوات التعبير عنها حسب ظروف التطور التكنولوجي في الوسائط التعبيرية.

وفي هذا الإطار يحاول كتاب "وجوه مكممة ولوحة حاسرة"، تأليف كل من الفنان الأردني محمد العامري والناقدة التشكيلية التونسية كوثر دمق، الإجابة عن بعض الأسئلة الشائكة وعن تساؤلات عديدة تتعلق بالتعبير عن تمظهرات الإبداع وخاصة الفنون التشكيلية في زمن الوباء.

الكتاب، الصادر أخيرا عن دار خطوط وظلال، هو دراسة تجمع بين النزعتيْن التاريخانية والنقدية في الوقت ذاته، عبر تتبع مسارات الفنون وتجلياتها في التعبير عن مصائبية الأوبئة وصولاً إلى فايروس كوفيد – 19، والبحث في العوامل التي ساهمت في تحبير الحالة الكونية الكارثية في الإبداع الفني، ليشكل وثيقة بصرية تتغذى من تفاعلات القراء مع الكتاب وطرائق تناولهم لهذه الظاهرة.

انتقل الإنسان من هاجس إلى آخر عاريا من كل الأسلحة التي ابتكرها كي يكون سيد العالم، عالم لفظه عند لحظة انتشار الوباء الذي شكّل مدخلا إلى كوابيسه العميقة النامية جنبا إلى جنب مع انحلال القيم الإنسانية وهوس السلطة والجشع الكاسح لكل المعايير، وفي هذا لم يجد غير الفن رفيقا له.

بات إنسان اليوم يعيش الالتصاق ما بين الخيالي والمادي، وبين اليومي – العادي والمفتوح على معنى الحياة والعدم والرعب من الانقراض. وتجيء الفنون التشكيلية اليوم، كما الفنون السالفة، لتُمسك بأدواتها الخاصة ولترسم معالم هذا العالم المتصدّع الذائب في كابوس العدمية وتلاشي الحدود وذوبان الخصوصية الثقافية.

اليوم باتت الأعمال الفنية الماضية التي تصوّر ليس الجحيم ولكن هشاشة الإنسان، وتجسّد الرعب الخارج عن المنطق وعن السيطرة، أكثر واقعية من اللوحات التي تنتمي إلى المدرسة الواقعية والطبيعية.

ليس وباء كورونا متميزا عن باقي الأوبئة التي عرفتها البشرية التي ما حطت وعبرت إلاّ وأحدثت تحوّلا هائلا في مجمل مرافق الحياة.

وبناء على تلك التحوّلات جاءت الأعمال الفنية لتضع النقاط على الحروف وتحفّز الاكتشافات العلمية والطبية، لا بل لترسي قواعد جمالية جديدة.

ويعمد الفنانون اليوم إلى استكمال ما وضعه رسامو الجحيم والموت الجماعي في القرون الفائتة من كشف لحقيقة الإنسان بما ارتكب من جرائم، وما يقدّمه اليوم تحت وقع صدمة انتشار الفايروس في العالم أجمع من تعاطف مع "أخيه" البشري الذي أصبح فجأة شريكه في مكافحة فايروس قاتل لا يُميّز بين إنسان وآخر.

وتطرح كوثر دمق عدة تساؤلات حول إمكانية التجانس والتمازج بين مختلف الأجناس الفنية، وتبين كيف سعى الفنان إلى توظيف تقنيات الفنون الأخرى في حيز الفن التشكيلي، علاوة على استحضار المواد والخامات ذات الحياكات والملامس المختلفة في بيئة العمل الفني من مظاهر التعبير التشكيلي المعاصر وأشكاله، كل ذلك للتعبير بشكل أو بآخر عن مخلفات الوباء الذي صار هاجسا عالميا وغير من ثقافات وعادات المجتمعات البشرية بشكل جذري.

كذلك يؤشر الكتاب على الإبداع الإلكتروني كوسيط جديد، والعروض الإفتراضية التي جاءت بديلاً عن صالة العرض الواقعية، كجزء من مقاومة المبدع للظروف الطارئة، وكحالة إحيائية للتجريب عبر وسائط جديدة تتضمن تنويعاً على موضوع واحد، وذلك بالتركيز على المضمون والشكل والتحليل لنماذج أنجزت مساراً بائناً في ما يخص الجائحة، وما لحقها من تغيير في الأساليب والمادة على حد سواء.

الكتاب دراسة تجمع بين النزعتين التاريخانية والنقدية عبر تتبع مسارات الفنون وتجلياتها في التعبير عن مصائبية الأوبئة

وعمقت الجائحة البعد الرقمي في المعارض التي التجأت إلى الفضاءات الافتراضية بديلا عن الواقع، ولكنها أيضا دعمت انتشار الفن الرقمي. ولئن كان القليلون قد رأوا في المنجزات الرقمية فنا قائم الذات في السابق فإن الأغلبية من الفنانين، الذين يستعملون الأدوات المادية التقليدية من أقلام وفرش وألوان وأصباغ، لا تزال تنكر انتماء العالم الرقمي إلى الفن، فما هو في نظرها سوى ألعاب مسلية، توهم من يتعاطاها بأنه فنان، والحال أنه لا يحسن استعمال الألوان ولا المزج بين بعضها البعض، ولكن هذا المأخذ زال مع التطورات الكبيرة التي شهدها الفن التشكيلي في السنوات الأخيرة لتأتي الجائحة وتدعم ذلك.

ويتوقع أن وسائل الإعلام الرقمية ستصبح أكثر أهمية بالنسبة إلى تجارة القطع الفنية، خاصة بالنسبة إلى الجيل الأصغر سنا الذي شب معها، إذ ستتواجد في المستقبل القريب تجارة القطع الفنية التقليدية التي يحضرها الزوار شخصيا، جنبا إلى جنب مع فعاليات الفنون التي ستقام على المواقع الإلكترونية.

ولم يؤثر الواقع الرقمي على تقنيات الفنون فحسب بل تجاوز ذلك إلى المواضيع التي بات يتناولها الفنانون، الذين وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع ذواتهم معزولين ومطالبين بأن يفعلوا شيئا ما تجاه ما يحدث.

هذا المؤلف المشترك بين محمد العامري وكوثر دمق هو بمثابة تثاقف بين شخصين متباعدين في الجغرافيا تجمعهما فكرة واحدة؛ هي الجائحة وتجلياتها في الفن التشكيلي بشتى صنوفه.

الجائحة كان لها بالغ الأثر في الفن (لوحة للفنان غسان العويس)